النفاق والمنافقين

الشيخ محمد محمود ندا

الخطبة السادسة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، وإليه المصير. وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمدًا رسول الله، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير. اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهديه، وصاروا على منهاجه، وجاهدوا تحت لوائه، فكانوا هم الفائزين.

أما بعد:

فهذا هو الدرس السادس في حديثنا عن النفاق والمنافقين من خلال القرآن الكريم.

وقد عرفنا في الجمعة الماضية أن المنافقين يهربون من أعباء الجهاد في سبيل الله، وفي الوقت ذاته يتطلعون إلى مشاركة المجاهدين في الغنائم التي يحصلون عليها من المنهزمين.

إنهم يدورون حول أنفسهم كما يدور حمار الرحى أو ثور الساقية؛ يدور والمكان الذي انتقل إليه هو نفس المكان الذي انتقل منه. نفوسهم دائمًا هي محور تفكيرهم ومحور اهتمامهم.

ومنهم تلك الطائفة التي تحدث القرآن عنها، وذكرنا بها وهو يحدثنا عن غزوة أُحد، وكان كثير من المنافقين قد انسحبوا من الميدان. ولما حدث انكسار في صفوف المجاهدين، بسبب ما نعرفه من مخالفة مجموعة الرماة على الجبل لأوامر رسول الله ﷺ لمّا حدث ذلك الانكسار، ذكرنا الله تعالى بطائفتين من الذين كانوا في هذه المعركة:

طائفة مؤمنة صادقة ألقى الله تعالى عليها ظلال الأمن والسكينة، أما الطائفة الأخرى فقلوبهم مريضة، يقول الله تعالى: **(ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسًا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شئ).**

"هل لنا من الأمر من شيء؟"

هذا التساؤل منهم فيه اعتراض على خطة القيادة في المعركة، وأنهم قد دُفعوا إلى المعركة دفعًا لأمر غامض، دفعوا ليموتوا أو ليدفعوا ثمنًا فادحًا. (هل لنا من الأمر من شئ).

فيرد القرآن الكريم عليهم: (قل إن الأمر كله لله)

فالأمر ليس لكم، ولا لغيركم من الناس، بل الأمر أولًا وأخيرًا لله. وليس إلى النبي ﷺ ذاته، فقد قال الله تعالى له من قبل: **(ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون).**

فإذًا، الأمر كله لله، وهم يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون: **"لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا"**، أي: لو كان الأمر بأيدينا ما قُتل واحد منا في هذا الميدان.

ولكننا كنا بعيدين عن هذه الأمور ولم نُستشر فيها، وهذا كلام خبيث وسوء ظن بالله عز وجل.

والله سبحانه وتعالى يرد عليهم: **(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم).**

قل: لو كنتم في بيوتكم، وأنتم حريصون على سلامتكم، ومتحصنون بكافة التحصينات، فإن الله تعالى إذا كتب على أحدكم الموت في مكانٍ ما، فلا بد أن يُفرز من بيته إلى مضجعه الذي قدّره الله تعالى له.

كان هذا هو موقف بعض الذين خرجوا في صفوف المجاهدين مداراةً للمسلمين، لا حبًا في الجهاد في سبيل الله.

أما المنافقون الذين انسحبوا من الميدان قبل المعركة، فقد كان لهم موقف آخر، فإنهم لما حدث ما حدث في هذه المعركة، قالوا عن الذين قُتلوا فيها:

"لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا"، أي: لو أنهم بقوا معنا ما مات منهم أحد.

وهذا القول الخبيث منهم كأنهم أصحاب الرأي القوي، والحكمة النافذة، أما غيرهم فلا حكمة عندهم ولا صواب.

(لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحي ويميت والله بما تعملون بصير).

إن الموت والحياة ليس الخروج للجهاد أو الخروج للعمل في أي مكان هو السبب فيهما، وإنما ما يحدث من أسباب لموت الناس أو قتلهم إنما هي أسباب ظاهرة فقط، ولكن قدر الله هو الذي يسير الأمور كلها. ولو كان الأمر كما يظن هؤلاء الناس، لما خرج أي إنسان لاكتساب الرزق في بلد بعيد عن بلده، وما خرج واحد ليجاهد في سبيل الله دفاعًا عن حرمٍ، أو إعلاءً لمبدأ، أو دفاعًا عن بلده، أو عرضه، أو بيته، وبذلك تفسد الحياة كلها وتنهار.

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

ومن كانت منيّته بأرضٍ فليس يموت في أرضٍ سواها

وزيادة على ذلك، فإنهم يبثون الهزيمة في النفوس، ويثيرون القلق والحسرة في قلوب الناس، فإذا بهم، كما كشف القرآن الكريم عن دخيلتهم:

(الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا).

هم قعدوا عن القتال، وعن الخروج، ثم يثيرون البلبلة، ويبثّون الحسرة في قلوب أهل الشهداء وأصحابهم، ويقولون: لو أن هؤلاء قعدوا معنا ما ماتوا وما قتلوا.

(الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا).

كأن رأيهم هو عين الحكمة والصواب، وكأن طاعتهم لرسول الله ﷺ هي عين المغرم وعين الخسارة. ولو أن الناس أطاعوهم، لما وقعت تلك الأمور التي حدثت. وهنا يتحدّاهم القرآن الكريم تحدّيًا ثابتًا واضحًا، فيقول لهم:

(قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين).

فلو كان ما يقولونه حقًا، فليدفعوا عن أنفسهم الموت إذا نزل بهم.

وهل يستطيع أحد أن يدفع الموت عن نفسه؟!

قال تعالى:

(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة).

وقال أيضًا:

(كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة، وإلينا ترجعون).

ولا يكتفي هؤلاء المنافقون بالقعود خلف المجاهدين، وإنما يذهبون إلى بثّ الهزيمة، وتبطيء، وتثبيط همة المقاتلين في سبيل الله.

فتارة يقولون ما حكاه القرآن عنهم:

(قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلموا إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلًا، أشحّة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد، أشحّة على الخير، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرًا).

وتارة أخرى، يقولون لإخوانهم من أهل المدينة:

"يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا"، أي: ارجعوا، لا مقام لكم في هذا المكان، لأنكم صائرون إلى الهلاك.

وهكذا يُثبطون دائمًا الهمم والعزائم، حتى لا يشترك المسلمون في حرب على الإطلاق.

وهذه هي الخلخلة والزعزعة التي يمكن أن تُحدث أثرًا في نفوس المجاهدين المؤمنين الذين يُلبّون داعي الجهاد في سبيل الله.

ولكن، والحقيقة تُقال، فإن المؤمنين لم يتأثروا بهذه المواقف أبدًا.

وفي الوقت نفسه، فإن هؤلاء المنافقين، مع تثبيطهم للهمم والعزائم، يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ويتفرّجون عليهم وهم يصارعون جحافل الطاغوت.

فإذا أصيب المسلمون بمحنة في أيام المعركة، عدّوا تخلّفهم عن القتال نعمة من الله عليهم، وأنه عين الحكمة والصواب.

أما إن انتصر المسلمون، وأصابوا نعمة من الله وفضلًا، فنالوا نصرًا وغنيمة، فإن المنافقين يندمون ويتحسّرون على أنهم لم يكونوا مع المؤمنين وفي صفوفهم، ليشتركوا معهم في الأرباح التي حصدوها من هذه المعركة.

كما قال الله تعالى:

(وإن منكم لمن ليبطئن، فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيدًا * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزًا عظيمًا). هكذا يقف المنافقون هذه المواقف.

وفي الوقت الذي يتفرجون فيه على المؤمنين وهم يصارعون جحافل الطاغوت، في نفس الوقت، تجد المنافقين يجرون اتصالات سرية مع أعداء الله، يشجعونهم على الصمود، ويعدونهم بأنهم سيكونون معهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم. سيقفون معهم برجالهم، وسيقفون معهم بعتادهم، وسيقفون معهم كذلك بأموالهم، يمدونهم بالمعونة ويمدونهم بالرجال. فإذا جدَّ الجدُّ وأصبح أعداء الله في مأزق حرجٍ، وأنه لا نجاة لهم، فإن المنافقين يدبرون عنهم ولا يسألون عنهم بمعونة من رجالٍ أو بأموال على الإطلاق. ولذلك، ضرب الله تعالى لهم مثلًا بالشيطان، فقال الله تعالى: **(كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين).** وقال الله تعالى: **(وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون).** وقد حدث هذا من المنافقين في غزوة يهود بني النضير. فإن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب الحصار عليهم مدة طويلة، وكان قد طلب منهم أن يخرجوا من المدينة، وعزموا على الخروج، فأرسل المنافقون إليهم: "لا تخرجوا، ونحن سنكون معكم ضد محمد". فظلوا في أماكنهم وأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن نخرج أبدًا". فَضَرَبَ عليهم الحصار، فلما اشتد عليهم الحصار، لم يُمدِّ المنافقون إليهم يد معونةٍ أبدًا، لا برجلٍ ولا بمالٍ ولا بعتادٍ. وفي ذلك يقول الله تعالى: **(ألم ترَ إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدًا أبدًا ولئن قوتلتم لننصركم والله يشهد إن المنافقين لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم فإن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون).**

وهكذا تجد الزعزعة والدَّبدبة والخداع والنفاق والتمويه والظهور بوجوه كثيرة وجه مع هذا، ووجه مع ذاك.

وهذا دأب المنافقين في كل مكان. ولذلك قال النبي ﷺ: **"تجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه"** أو كما قال عليه الصلاة والسلام.